ملاك الرحمة

بقلم الاب لويس فؤاد اليسوعي

توارت الشمس عن العيان ونشر الشفق انوارهُ الذهبيَّة فكنت ترى حول قصر السيد فرنسيسكو جمًّا غفيرًا من اولي الفاقة واهل الضيق . وكان اذا انفتح باب القصر تظهر الفتاة ايثون وشارات الحسن تلوح على وجهها وعرف الادب يفوح من كلامها فيخرّ الجمع على قدميها طالبًا من العلي المنّان ان يحفظها السنين الطوال شرفًا اثيلًا لأسرتها المصونة وعونًا للبائس المنكوب

فكانت ايثون ابنة الاشراف تتقدَّم نحو كل من الحاضرين وتعطيهِ نصيبهُ من القوت وكان فعلها هذا مقرونًا بشيء من اللين واللطف الجميل الذي من دأبهِ ان يحلّي العطية ويعظّمها في اعين المسكين مهما كانت طفيفة زهيدة ولذا كنت ترى القوم عند انتهاء توزيع الصدقات يرفعون الاكفّ نحو السماء طالبين بصوت وقلب واحد : « اللهمَّ اسبل ستركَ على اسرة صاحب المنزل » وكانت ايثون تجيب على صلاتهم : « امين اللهمَّ امين » ثم تدخل من حيث اتت والكل ينصرفون والثناء الجميل ملءُ فيهم

وكان المساء الذي نحن في غضونهِ مغيمًا والسحب تتصاعد الى عنان السماء منذرةً بمطر قريب فخافت ايثون على اولادها الفقراء كما كانت تسميهم . فما توارت عن العيان وأغلق باب القصر وراءها الَّا واسرعت نحو غرفتها لتلقي اليهم بنظرة اخيرة وهي كذلك اذ لمحت فيما بين الجمع فقيرًا يلبس فروة وفي رجليهِ خفَّان غليظان وعليهِ زيٌّ خشن لم ترَهُ قبل اليوم والامر الغريب انهُ لم يتخذ طريق المدينة بل جعل يطوف حول القصر ويصعّد النظر فيهِ ويصوّبهُ حتى آب الى نقطة ذهابهِ بازاء الباب . فرمى هناك عصا الترحاب وتمدّد على الحضيض متوسدًا الحجر

وما زالت الفتاة شاخصة اليهِ مهتمَّة بامرهِ حتى دقَّت الساعة الكبرى منبّهة اهل القصر بقرب ميعاد العشاء . وكانت قد خيَّمت ظلمة الليل وبدأت الرياح تهبُّ من مكامنها والعواصف تثور من مواطنها فتكاثف السحب اطباقًا على اطباق حتى اذا انشقَّ حجاب الجلد هطل ماء مدرار سالت بهِ الاودية سيلًا زخرت بهِ الانهار وطافت منهُ مجاري السبل

ثم هدأت زمرة الزوبعة وخفَّ صوت وقع قطرات الماء فسمعت الفتاة الرحومة صوت المسكين القائم على الباب وهو يناجي نفسهُ :

نام الجليسُون من هم ومن حزنٍ وبتُّ من كثرة الاحزان لم انمِ

فازدادت ايثون رقةً عليهِ واشتغل فكرها بامرهِ فجالت في عالم التصورات علَّها تعثر على واسطة تسعف بها هذا المسكين فلم يتيسَّر لها سبيل سوى استعطاف والدها بهذا الخصوص وطلب رضاه عن هذا المنكوب الحظ ولكنها لم تكن بجاهلة ما انطوى عليهِ فرنسيكو من امر ضيافة غريبٍ كهذا . . . طال بها الفكر حتى تاه عن بالها ان دقت ساعة العشاء وسئم ابوها من الانتظار واضطرب على حال ابنتهِ . والحق يقال انها منذ وفاة والدتها كانت ايثون تحلّ من ابيها محلّ الروح من الجسد فعرَّج الى غرفتها ليقف على الامر . فلمَّا لمحت ايثون والدها الحبيب داخل الغرفة جمعت قواها ورمت بنفسها على صدرهِ وقد اجهشت بالبكاء : والدي اريد ان استمدَّ منك نعمة

قال الاب : وماذا تطلبين ايتها العزيزة ؟

— أتعدني يا ابتاه الَّا تنكر عليَّ طلبي ؟

— فليكن كل ما اردتِ

— اتجاسر ابتِ رغماً عمَّا علمتهُ فيك من انكره لمثل هذا الامر وارغب اليك ان تأذن في ان يأوى داخل القصر هذا المسكين المعرَّض للبرد القارس والمطر الهاطل

— ما انتِ وهذا الرجل ؟ أوَليس يكفينا عبرةً ما لحقنا من المكايد ؟ أولا تدرين كم وكم لنا في هذه البقاع من الاعداء الذين يضمرون لنا الشر ؟ امسكي ابنتي وكفي عن هذا الطلب

ولا لوم في قول الاب هذا فانهُ منذ هجر بلاد ايطاليا واستوطن البرازيل قاسى من غدر الهنود وهجماتهم ما جعلهُ في حذر مبين وبالاخص من يوم ما توعَّدهُ فوريجان شيخ القبيلة بسفك دمهِ مع خطف ابنتهِ وسلب امواله

وكانت ايثون على وشك ترك قضيتها لما رأت في ابيها من التكرُّه العظيم لمقصدها ولكنها تجلدت فصارت الى الحديث وقالت :

— ما اسرع ما نسيتَ وعدكَ يا ابتاه ! وأي شرّ ترهب من رجل يلبس الاسمال ويتوسَّد الحجر وقد اثقلتهُ الايام وقوَّست ظهرهُ النكبات ؟

— من يعلمنا بخفايا صدره

— ما لنا والقلوب الله اعلم والذي بما انطوت عليه ؟

فاخذ فرنسيسكو يتمشّى مدّة ويتنازع قلبهُ عاملان عامل الحب لابنته من جهة ومن الاخرى عامل الخوف من خيانة اذا ادخل الغريب في بيتــه . لكنهُ بعد قليل قال لايڤون : لقد غلبتني يا بُنيتي

— أنعم بك ابًا بل قل غلبتك محبتك للقريب ولعمل الخير . ثم اسرعت للحال الى الفقير وادخلتهُ القصر وسلّمتهُ لڤكتور خادمها مكرّرة عليهِ الوصيّة ان يعتني كل الاعتناء بضيفهــا

امّا ڤيكتور فبعد ان امعن النظر في الضيف كرّ الى سيدته واجبًا فاعلمها انــهُ رأى هذا الصعلوك يطوف حول القصر ويتفرّس فيهِ بنظرٍ حادّ كانهُ يضمر الشر لقاطنيهِ

— طب بالًا يا ڤكتور فانني مثلك لمحتهُ حين كان ينظر الى اعالي القصر ولم يكن صنيعه هذا الّا استجادًا باحد سكّان الدار وطلبًا لمأوًى في الليل

قالت ثم رجعت الى ابيها وقد اخذت بمجامع قلبها هزّةُ الطرب فتشاطرا الحديث معًا بعد العشاء حتى اذا ما اوشكت المسامرة على الانتهاء قامت ايڤون حسب العادة واتت بالكتاب المقدس لتقرأ على والدها فصلًا منهُ . فما كان اشدّ فرحها عند ما فتحت الكتاب ووقع نظرها على قول اشعيا النبي هذا : « اذا ابرزتَ نفسك للجائع واشبعت النفس المعنّاة . . . وادخلت البائسين المطرودين بيتك . . . حينئذٍ يتبلّج كالصبح نورك وترهو عافيتُك سريعًا حينئذٍ تدعو فيستجيب الرب وتستغيث فيقول هاءنذا . . . »

قالت ثم نظرت الى ابيها واذا الدموع تسيل من عينيه فقبّلت يدهُ وقبّل والدُها جبينها الوضّاح وسار كل الى غرفته . فما كان وهنٌ من الليل الّا وأطفئت النيران وروّت الظلام بسوادهِ الحالك على القصر فدخل اهلهُ في السكينة والهدوّ التام

ولكنهُ لو تسنى لعين لحاظة ان تحدق بنظرها الحادّ للمحتْ رجلًا وبيدهِ فانوس صغير يمرّ حثيثًا داخل القصر واذا تتبّعتهُ في سيرهِ لعرفت انــهُ المسكين الذي اضافتهُ ايڤــون

انكشف شمار الليل وانبثق الصباح على اهل القصر فقام كل ليتعاطى مهنتهُ واما ابو الفتاة فكان متربّد الوجه لا تستهشهُ المناظر البهيجة ولا يبرّد وهج اضطرابهِ نسيم

الصباح . وكان اوّل ما تفوّه بـهِ ان طلب من ايڤون ان تأتيه بالمسكين الذي قضى الليلة في القصر

— والدي لقد انتهز سكينة الرياح وصفاء اديم السماء فعرّج الى قريته لانها على ما يزعم على بعد نيّف وخمسين ميلًا

فهتف حينئذٍ فرنسيسكو قائلًا: « اشكرك يا الله . لقد داهمني يا بنيّة حلم جعلني رهين البلابل بخصوص ضيفك المسكين فخلتهُ يُدخل اعداءنا الوغدة في القصر ليسلمهم ما فيهِ

— كن مطمئن البال سيدي لم يكن هذا الّا حلم

— اشكرك يا الله

*

مضى على ما ذكرناه ثلاثة اشهر واهل القصر متنعمون بارغد عيش واهنإه متمسكين بعرى التقوى والاحسان الى المسكين . وكان من عادات ايڤون ان تخرج بصحبة ابيها فيقضيان ساعة الاصيل يدًا بيد بين حدائق القصر وغابات السلڤا (Selva) الممتدة على مدى البصر تكتنف فيها اصناف الاشجار التي يستخرج منها اصحاب البرازيل كل ثروتهم وخيراتهم . ولمّا انتهيا في سيرهما الى جنوب القصر شخصت عين ابيها نحو بعض بيوت تستند الى سفح الجبل المشيد في اعلاه القصر فقال : قلبي يحدثني انهُ قد حان وقت الظفر بالعصبة التي تضمر لنا الشرّ في هذه القرية ولكن كيف الوصول الى اخماد نار اشتعل لهيبها في قلوب همج تسلّط عليهم شيطان الحقد والغيرة؟

— اذا تيسر لنا القبض على فوريجان زعيمهم تمّ لنا المرغوب

— كيف نمكنهُ وهو لمنعُ من العقاب ؟

— آه ابي لو سمعت مني وقصدت « باهيا » مركز الحاكم الايطالي وتداولت هناك معهُ في امر القبض على اولئك الاشرار المتمردين لكفانا شرّهم

— يعزّ عليّ ابنتي ان اتركك في هذا القصر المبتعد عن كل عمران

— لمَ الخوف ونحن في قصر اشبه بحصن حريز لا يقوى عليهِ عدوّ ؟

— وما يغني الحصن اذا خلا من الجنود المسلّحة ؟

— جنوده اولادي الفقراء واسلحتهم الصلوة

فلم يتمالك فرنسيسكو مع ما كان عليه من التقوى على اخفاء تبسمه وعدم ثقته بقول ابنه

— لا تستصغر قولي ولا تستخفّ برأيي أيها الوالد العزيز فان فيه بعونه تعالى رجاء عظيماً

اجاب والدها: نعم ولعلّ المثل يصدق فيك: «انّ الحقيقة على لسان الاحداث»

وكانت الشمس حينئذٍ تميل الى الزوال ويتناقص النهار فتركت ايثون والدها بعد ان قبّل جبينها الوضّاح واعدّاً اياها بالعمل طبق مشورتها ومضت الى حيث كانت تلتئم الفقراء فبعد توزيع الصدقات طلبت ايثون من اولادها ان تكون صلاتهم لنجاح سفر ابيها الحبيب وفوزه القريب باعدائه . والكل صاحوا بصوت واحد: «اللهمّ انصر المحسن الينا»

ولما كان صباح الغد ودّع فرنسيسكو ابنته بقلب كسير وهو يتلهّف على مفارقتها في مثل تلك الحال ومنّاها بقرب رجوعه حالما يفرغ من مهمّته

— سرْ على بركة الله ابي ان الله لرؤوف بعباده

اما الفقراء فانهم لم ينتظروا الصباح للعود الى قريتهم فقفلوا راجعين في طريق منازلهم وكان اديم الجوّ صافياً ونجوم السماء تتلألأ وهم يتحدثون عن سفر فرنسيسكو والقبض على اعدائه

فلمّا كشف الصباح عن وجه الظلمة وكان رأد الضحى شاع الخبر بين سكّان القرية حتى بلغ مسامع فوريجان واصحابه فاستشاطوا غضباً وصمّموا العزم المتين على اهلاك سكان القصر وسلب الفتاة ايثون لما كانوا يعرفونهُ من محبة ابيها لها

ثم انتصب بينهم واحد منهم فقال: والامر لا يعسر علينا لأني دخلت القصر واستقصيت زواياه وخفاياه يوم تزيّيت بزيّ الصعاليك وقضيت فيه الليل منذ ثلاثة اشهر لما اليوم فهو اليوم القاضي على اعدائنا والويل لسكان القصر

فاجابت طغمته وقد عُرفت بالاقدام على الكبائر وارتكاب فظائع الاعمال: «الويل لسكان قصر السيد فرنسيسكو»

— اما التلاقي فعند منتصف الليل على باب القصر (لهُ بقيّة)